

غنى الجذور ونغذيتها للأغصان المؤمنون في صورة "شجرة الزيتون" لدى الرسول بولس (رو ١١: ١٦-٢٤)

١. مقدّمة

في رومية ٩-١١، الذي هو أبرز نصّ في العهد الجديد يتّصل بموضوع اختيار شعب الله، هناك فقرة خاصّة أثّرت بشدّة في الفكر والتفسير المسيحيين. وهي المعروفة بصورة، أو تشبيه، شجرة الزيتون (رو ١١: ١٦-٢٤). هنا، يوضّح الرسول رؤيته إلى شعب الله مشبهاً إياه بشجرة. يورد القديس بولس، في هذا المقطع، شرحاً تعليمياً حاسماً لمسألة الاختيار، معتمداً طريقةً شريقيّةً محض في معالجة المسائل المهمّة. فعوضاً من أن يشرح المتكلم المعضلة بنظريّة مجردة، يستهلّ شرحه بالاستناد إلى صورة تساعد على بناء تفسيره النظريّ. في المرحلة الثانية من خطاب بولس في رو ١١: ١٦-٢٤، نصادف ما يُشار إليه بالعبريّة بلفظة "م ش ل"، وهو صيغة بلاغيّة شريقيّة ما تزال تُستعمل كثيراً، إلى اليوم، في اللغة العربيّة، ويشار إليها بكلمة "مثل"¹.

¹ بالنسبة إلى أهميّة "المثل" في الكتاب المقدّس، راجع:

Tarazi, P.N. *The Old Testament: An Introduction: Volume 1 Historical Traditions*. 2nd ed., Crestwood (N.Y.): SVSP, 2003. pp. 22-25

راجع، أيضاً، لائحة المراجع في الكتاب المشار إليه أعلاه، ص ٢٥-٢٧.

ينتمي "المثل" إلى صيغ التشبيه البلاغية. وهو ربما يكون قصيراً وبسيطاً، كمثل صورة "العجين" في رو ١١: ١٦، أو طويلاً وموسَّعاً، كالصورة التي نتعامل، هنا، معها. الـ "المشليم" (جمع "مَشَل" في العبرية) القصيرة تسمى في العربية "أمثالاً" أو "أقوالاً مأثورة" أو "عِبْرًا". أما الـ "المشليم" الطويلة فيمكن أن تُدعى "أمثولات" أو "تشابيه"، أو حتى "خُطَباً تعليمية" أو "مقاطع سردية". وأنا أفضل أن أسمي الـ "مَشَل" الذي يستخدمه القديس بولس، في هذا المقطع، "تشبيهاً"، وذلك بسبب شكله ونوعه الأدبي، أو "توضيحاً"، لما يضطلع به من دور في سياق الرسالة^٢.

يؤسس القديس بولس فكرته على المبدأ المعروف في زراعة الأشجار، والذي يقضي بوجود تطعيم كل شجرة برية لتصبح مثمرة. فالفرق الوحيد بين عباراتي "زيتونة برية" (*ἀγριέλαιος*) و"زيتونة جيدة" (*καλλιέλαιος*) في رو ١١: ٢٤، هو أن الأولى تنتج ثماراً غير صالحة للأكل، أي، ما يعتبره الناس شجرة عقيمة، في حين أن الثانية سخيّة بالثمار الصالحة للاستهلاك البشري. وتالياً، فإنّ الفكرة المفتاح، في هذا التشبيه، ليست كون الشجرة برية أو مزروعة بالمعنى الفكري أو الثقافي، بقدر ما هي كون الشجرة عقيمةً أو مثمرةً من حيث تأمين التكاثر. هذا هو المعنى الأساسي في فكرة التطعيم، وهذا ما يعالجه تشبيه بولس بشكل رئيسي. فالله طعم شعبه المختار ليصير مثمرًا، فيُتاح إمكان الخلاص للجنس البشري بأسره.

² لقد سمى الدارسون هذا المقطع "استعارة" (allegory\metaphor)، أو أمثلة/مثلاً من دون أي تمييز. أنظر:

Byrne, B. *Romans*. Sacra Pagina Series 6. Collegeville (Minnesota): The Liturgical Press, 1996. 340; Bourke, M.M. *A Study of the Metaphor of the Olive Tree in Romans XI*. Studies in Sacred Theology 2.3. Washington, D.C.: CUA, 1947; Rengstorf, K.H. "Das Ölbaum-Gleichnis in Röm 11.16ff. Versuch einer weiterführenden Deutung." *Donum gentilicium. New Testament Studies in Honour of David Daube*. Ed. E. Bammel et. al., Oxford: Clarendon 1978. 127-164.

صحيح أن اختيار بولس وقع على الزيتون لأن تطعيمها سهل، وذلك بسبب انتشار زراعتها في حوض البحر الأبيض المتوسط. إلا أن السبب الرئيس لهذا الاختيار يرتكز على دلالتها الكتابية. فشجرة الزيتون تُمثل شعب الله كما تحدده الأسفار المقدسة. سأنقل، الآن، إلى شرح صورة الشجرة، على وجه العموم، وشجرة الزيتون، على الأخص، في الكتاب المقدس.

٢. صورة الشجرة في الكتاب المقدس

واستعمالها في الرسالة إلى أهل رومية

لا شك في أن تشبيه الشجرة قالب أدبي يتكرر في كتب العهد القديم. ففي الأسفار العبرية حفنة من النصوص المهمة التي تقارن البشر، ولا سيما المؤمنين، بالأشجار^٣. أحد أبرز هذه النصوص فاتحة سفر المزامير حيث الرجال الأبرار هم "كالأشجار المغروسة على مجاري المياه" (مز ١: ٣ أيضاً، إر ١٧: ٨). كذلك يقارن يسوع البشر بالأشجار، التي تحمل ثماراً إما جيدة وإما سيئة^٤. ويستعمل يوحنا المعمدان، أيضاً، هذه الاستعارة في لو ٣: ٨-٩. فضلاً عن ذلك، ثمة نص مهم من خارج النصوص اليهودية القانونية هو ١ أنوخ ٩٣: ٥، حيث يُدعى المختار "نبته الدينونة البارّة"^٥.

^٣ هذا ما يؤكد بوفون، راجع:

Bovon, F. *L'Évangile selon Saint Luc (1,1 – 9,50)*. Commentaire du Nouveau Testament .IIIa. Geneva: Labor et Fides, 1991. 169.329f

راجع أيضاً: إر ١١: ١٩، إش ٥٦: ٣، حز ٤٧: ١٢، زخ ١٢: ٦، أم ١١: ٣٠، نش ٢: ٣، إش ٧: ٢.

^٤ مت ٧: ١٦-١٧، لو ١٢: ٣٣-٣٥، لو ٦: ٤٣-٤٤.

^٥ هناك، في الكتابات غير القانونية لليهودية البكرة، مقاطع أخرى كثيرة ترتبط بالأشجار والزيتون، وذلك من زاوية أنهما يشيران إلى شعب الله. انظر مثلاً. Test.Lev 8:8.

التشابه الأقرب إلى نص رومية هي التي أوردها النبيان إشعيا في إش ٥: ١-٧ وإرميا ٢: ٢١ حيث يُقارَن "كل بيت إسرائيل" (إش ٥: ٧) بكرم عنب لا يعطي الثمار المنتظرة، رغم العناية التي خصّه الله بها. وهناك صورة إيجابية للكرمة التي تثمر الثمار المرجوة نجدها في المزمور ٨٠: ٩-١٠. واللافت، هنا، أن عبارة الآية التاسعة "فأصلت (الكرمة) أصولها فملأت الأرض" تجمع، ببراعة، بين صورة الكرم والوصية الإلهية المعطاة لآدم وحواء في تك ١: ١٨ أن يملأ الأرض. فتلميح كاتب المزمور إلى هذا النص واضح جداً في العبرية. لذا، فعبرة "ملأت الأرض"، في مز ٨٠: ١٠، تلائم تماماً "الموضع الأدبي" (topos) المختصّ للتكاثر والإثمار. علاوة على ذلك، تظهر الكروم وأشجار الزيتون معاً، غير مرة، في العهد القديم بوصفها علامة خصب. لكن، ثمّة تفضيل لأشجار الزيتون بسبب غناها الغذائيّ ومنافعها المتعدّدة.^٦ وفيما ترتبط الكرمة بالخمير، تُعتبر شجرة الزيتون مصدر الغذاء والوقود والمراهم والأدوية والنور. ويشكل سخاؤها وبساطتها مثلاً يُفترض بشعب الله أن يحتذيه. كما أن غصن الزيتون، في قصة الطوفان، يستبين علامة حياة وبركة (تك ٨: ١١). أخيراً، ترتبط أشجار الزيتون، مباشرةً، بالهيكل وشعائره. فالأبواب والشاروبيم مصنوعة من خشب الزيتون (١ مل ٦: ٢٣، ٣١-٣٣). وقنديل الهيكل يشتعل بفضل زيت الزيتون (خر ٢٧: ٢٠، لا ٢٤: ٢)، الذي كان يُستخدم، أيضاً، لمسح الملوك والكهنة (١ صم ١٦: ١، ١٣، خر ٢٩: ٢٩، لا ٤: ٣).

^٦ الملاحظ أن دعاء هذا المزمور "يا إله الجنود ارجعنا أطع من السماء وانظر وتعهّد هذه الكرمة والغرس الذي غرسه يمينك" (مز ٨٠: ١٤-١٥) تضعه الليتورجية الأرثوذكسية على لسان الأسقف المحتفل، الذي يسأل الله أن يحفظ جماعة المؤمنين بوصفهم أغصان هذه الشجرة.

^٧ في أمثولة يوثام (قض ٩: ٧-١٥) تفضّل الزيتوننة الاحتفاظ بدسمها عوض أن تتوّج ملكة على الأشجار، لأنّ دسمها يشرف الله والإنسان.

أما تشبيهه إر ١١: ١٦ الشهير، حيث يسمي الله شعبه "زيتونة خضراء ذات ثمر جميل الصورة"، فلعله أكثر نصوص العهد القديم تأثيراً في بولس. من المهم أن نلاحظ أن إرميا يقدم الربّ على أنه هو الذي غرس الشجرة، ويذكر الأغصان، حين يشير إلى تكسيورها بسبب ما اقترفته من شرّ (إر ١١: ١٧). بالإضافة إلى ذلك، يقارن إسرائيل الجديد المثاليّ في هو ١٤: ٧، من ضمن مقارنات عدّة، بزيتونة "ويكون بهاؤه (تترجمها السبعينيّة بلفظ "إثماره") كالزيتونة"^٨.

ينتج من هذا أن الزيتون، في رومية، ترمز إلى شعب الله كما يُشار إليه في أسفار العهد القديم. إنّها شجرة زرعها الله، نفسه، واعتنى بها. لذا، يُتوقّع أن تأتي ثماراً جيّدة وتكون ملاءى نُسغاً لأنّ الله آمن لها تربةً خصبة. فإذا لم تُعطِ ثماراً جيّدة، قُطعت ورُميت في النار (إش ٦: ١٣، إر ١١: ١٦، ٧: ٢٠). هذا المظهر الحاسم يجيب، بوضوح، عن السؤال عمّن تمثّل الزيتون في رو ١١: ١٧-٢٤. فهي لا تمثّل إسرائيل أخروياً أو روحياً، بمعنى أنه منتصرٌ لتخطّيه التجارب بنجاح، ولا إسرائيل بحسب الجسد، بل تمثّل إسرائيل الكتابي، أي إسرائيل الذي تكوّن بكلمة الله وشريعته، وهو مستمر بفضل عناية الله به. هذا هو المفهوم الذي يرسمه بولس، في رومية، حين يقارن شعب الله بزيتونة. وهو، إذ يركز على هذه الأسس الكتابيّة، يبني صورته مشدداً على وظيفة كلّ جزء من أجزاء الشجرة: الجذر (ἡ ῥίζα) في ١١: ١٦، ١٨، والنُسغ (ἡ πλῶτης) في ١١: ١٧، والأغصان (οἱ κλάδοι) في ١١: ١٧، ١٨، ١٩، ٢١.

^٨ الشجرة التي تمثّل إسرائيل موضع أدبيّ (topos) نعر عليه، أيضاً، في الكتابات اليهودية الباكّة. أنظر:

Jub 1:16; Etiopic Hen 10:16; 93:8-10 and Philo de Exsecrationibus (V) 1526.
Maurer, Ch. *TWNT VI*, 987-988

٣. إبراهيم الجذر المحيي (الآيات ١٦ ب و ١٨)

رغم أنّ لفظ "جذر" له، في السبعينيّة، أربع دلالات مختلفة، على الأقلّ، وذلك بالإضافة إلى معناه الحرفي^٩، يتفق معظم المفسرين على أنّه يشير، في رو ١١: ١٦، ١٨، إلى الأصول، أي إلى رؤساء الآباء، وخصوصاً إبراهيم^{١٠}. هذا تؤكدّه نصوص كتابية مثل حز ١٦: ٣، إش ١١: ١، هو ٩: ١٦. فالنبي حزقيال يستعمل كلمة "جذر" بوصفها مرادفةً للأب والأم: "هكذا قال السيّد الربّ لأورشليم. مخرجك (تترجم السبعينيّة بلفظ "جذر") ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموريّ وأمك حثيّة". بالنسبة إلى إشعيا، يمثّل "الجذر" أسلاف داود في العبارة الشهيرة "سيطلع برعم من أصل (تترجم السبعينيّة بلفظ "جذر") يسيّ، وسينبت غصن من جذوره". أما هوشع فجدير بالذكر كمثّل ثالث، لأنّه يعبر عن عقر أسلاف أفرائيم بسبب نسيان أولادهم الربّ: "أفرائيم مضروب، أصلهم قد جفّ، لن يصنعوا ثمرًا، وإن ولدوا أميتُ مُشتهيات بطونهم".

في أي حال، بالعودة إلى رو ٩: ١١ حيث هؤلاء الأنبياء الثلاثة جزءاً أساساً من محاكاة بولس، لا بد من الإشارة إلى أنّ جذر الزيتون، هنا، يتّصف بأنه يمثّل لا أيّ سلف، بل فقط أولئك الذين شهدوا لإله الكتاب المقدّس، أي، الآباء الذين لم يجفّوا والقادرين على حمل الأغصان ومدّها بالنسغ الثمين. بكلام آخر: لقد عرف إسرائيل أبطالاً مزيّفين، وحوّنة كثيرين، بين أسلافه، مثل عيسو وعخان والملك منسى وآخرين كثيراً لم

⁹ من معانيه، أيضاً: الثبات والمقاومة (أم ٣: ١٢، حك ٣: ٤ وما يتبعها)، الأصل (حز ١٦: ٣، طو ٥: ١٤) الأمل ببدء جديد (أي ٧: ٩-١٤، إش ٦: ١٣) و توقعُ قدوم المسيح (إش ١١: ١٠، سير ٤٧: ٢٢، هذه الفكرة يتبناها بولس في رو ١٥: ١٢).

راجع، أيضاً Maurer, Ch. *TWNT VI*, 985-986

¹⁰ انظر Byrne, B. *Romans*, 340.346; Palzkill, A. *DENT II*, 1312 # 3; Maurer, Ch.

TWNT VI, 989

بالنسبة لتفسير آخر، راجع Fitzmyer, J. *Romans*, 614

يُذَكِّرُوا صراحةً، أو لم يَرِدُوا إطلاقاً في الكتاب المقدس^{١١}. لا محلّ لهؤلاء في جذر بولس. فهم ليسوا أسلاف إسرائيلِ الله، لأنهم أبعد من أن يكونوا جزءاً من شعب الله الذي يجاهد ليعيش بحسب وصاياه. لذا، فالأسلاف المذكورون في رومية، هم الذين آمنوا بالربّ، وشهدوا لرسالة خلاصه، وأولهم إبراهيم، أبو رؤساء الآباء كلهم. إبراهيم، بحسب لاهوت بولس، آمن قبل إعطاء الشريعة ووحده، في شخصه، اليهود والأمم على حدّ سواء في شعب واحد يكرم الله (رو ٤ : ١٣-١٤). فإذا أعدنا قراءة رو ٩ : ٤-٥ يتّضح لنا أنّ تعبير "الآباء" عند بولس يرتبط بالآباء الذين كانوا على علاقة وثيقة بالله. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما كانوا مصدر الوعود، والعبادة، وإعطاء الشريعة والعهود، والمجد والتبني وأخيراً المسيحاً. لهذا السبب كتب بولس أيضاً: "لا ينتمي كلّ الإسرائيليين حقاً إلى إسرائيل"، مسلطاً الضوء، في تمهيده وعرضه طرّحه الرئيس (رو ٩ : ٦-٩) على دور إبراهيم.

لكن، ثمّة سبب إضافي لتفسير "الجذر الحامل" (رو ١١ : ١٨) بوصفه يشير إلى الآباء القديسين فقط، لا إلى أيّ سلف يهودي بحسب الجسد. وهو أن الجذور هي، دائماً، العنصر الذي يمدّ الشجرة بالماء، إذ هي على صلة بالماء العذب، الذي يشير في الكتاب المقدس إلى كلمة الله وشريعته: "مبارك الرجل الذي يتكل على الربّ وكان الربّ متّكّله. فإنّه يكون كشجرة مغروسة على مياه، وعلى نهر تمدّ أصولها ولا تری إذا جاء الحرّ ويكون ورقها أخضر، وفي سنة القحط لا تخاف ولا تكفّ عن الإثمار" يقول إر ١٧ : ٧-١٢^{١٢}. وفي حز ٤٧ : ١-١٢ تعطي الأشجار ثماراً للطعام وأوراقاً للدواء، لأنّها قرب النهر

¹¹ إقرأ عن عيسو في تك ١٩ : ٢٥، ٤٥ : ٢٧، وعن عخان في يش ١٠ : ٧ وما يتبعها، وعن الملك منسى في مل ٢١ : ١٠-١٨.

¹² قارن أيضاً إش ٥ : ٢٤، مز ١ : ٣، حز ٤٧ : ١٢، إش ٥٥ : ١٠-١١.

الذي ينبع من المقدس. هذه المياه تمثل، بوضوح، كلمة الله، كما يعلن مز ١: ١-٣. عبارات أخرى: جذور شعب الله هم الأجداد الذين كانوا على صلة مباشرة بكلمة الله، فتشربوها وحوّلوها إلى نُسغٍ يتيح للشجرة أن تأتي بثمار كثيرة. لذا، يحمل الجذر في رو ١٦: ١١ صفة "قديس"، و"القديس" هو من كان على صلة مباشرة بالله، كما في لاويين ٤٥: ١١ "وتكونون قديسين لأنّي أنا قدّوس".

٤. كلمة الله تغذي الشجرة (الآية ١٧)

إذا كانت الجذور تمثل رؤساء الآباء، والمياه التي تتلقاها تشير إلى كلمة الله، ماذا يكون غنى الشجرة إلا الرفاهية والمنافع التي يعطاها إسرائيل، جيلاً بعد جيل؟ وأي منفعة أعظم من الأسفار المقدسة التي غدّت، ولا تزال، كل من يتكل على إله الكتاب؟ لا شك في أنّ العنصر الوحيد الذي يغذي إسرائيل، في كلا العهدين، هو كلمة الله. لذا، يقول سفر تثنية الاشتراع: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل ما يخرج من فم الربّ يحيا الإنسان" (تث ٨: ٣). أما كاتب سفر حكمة سيراخ فيتأمل في الأسفار ويراهما أعظم بركة أعطيت للناس، فيأخذ على عاتقه مسؤولية نشرها بعيداً وعلى مدى الأجيال (سير ٢٤: ٢٣-٢٤).

يرد لفظ "غنى" (ἡ πλοῦτης) مرّة واحدة في العهد الجديد. إلّا أنّنا نعثر عليه مراراً في السبعينية، وذلك إلى جانب صفة "غني" (πλούσιος) المشتقة منه والتي تعني أيضاً

¹³ هناك مقاطع كثيرة في الكتاب المقدس، يشير فيها الماء المنعش، استعارياً، إلى كلمة الله المحيية. أنظر إر ١٣: ٢، إش

٥٥: ١-٢، ٥٨: ١١، مز ٤٢: ١، ١٤٣: ٦.

”دسيم“. والحق أن الكتاب المقدس يتكلم على دسم الأرض^{١٤} أكثر من كلامه على دسم النبات والأشجار^{١٥}. من جهة أخرى، لا يساعد إفراط بولس في استخدام صيغة الإضافة^{١٦} في رو ١١: ١٧، على تحديد ما إذا كان الدسم مضافاً إلى الجذور أو إلى الأرض. والأرجح أن هذا الغموض مُتعمد، وذلك بغية الدلالة على الوحدة بين الشجرة وغنى الأرض، ما يؤكد أن غنى إسرائيل ليس غناه هو، بل ذاك الذي منحه الله، وحده، إياه.

ثمة، في رو ٩-١١ فقرة حاسمة مخصصة لكلمة الله بوصفها مصدر حياة البشر وخلصهم. ففي الفصل ١٠: ١-٢١، نجد خطين دلاليين قوامهما قبول كلمة الله (السمع/المعرفة/الإيمان)، كما أعلنت، أخيراً، في كلمات يسوع المسيح (رو ١٠: ٨، ١٧-١٨)، أو رفضها (الغباء/الجهل/الغيرة). يعرض بولس، في تفسيره الآية ٣٠: ١٤ من سفر تثنية الاشتراع والمقطع الذي تنتمي إليه، البراهين الكتابية على قرب الكلمة وفعاليتها في منح الحياة، أي في تخليص إسرائيل. ويلجأ الرسول في ذلك، على نحو لا يُضاهى، إلى أسلوب الربابنة اليهود:

”لكن ماذا يقول (السفر)؟ الكلمة قريبة منك في فمك وفي قلبك“ أي كلمة الإيمان التي نركز بها. لأتأكد إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات، خلصت. لأن القلب يؤمن به للبر، والفم يُعترف به للخلاص“ (رو ١٠: ٨-١٠).

¹⁴ انظر مثلاً تك ٢٧: ٢٨، ٣٩؛ إش ٥: ١؛ ٢٣: ٣٠. كذلك تستخدم لفظاً ”الدسم“ و”الدسامة“ في سياق المشية واللحم، راجع:

مز ٦٣: ٥؛ أي ١٦: ٣٦؛ حز ٢٥: ٤.

¹⁵ فقط في قض ٩: ٩ بحسب النص السبعيني؛ مز ٩١: ١٥ وحز ٣٤: ١٤.

¹⁶ Byrne, B. *Romans*, 346.

وعد الخلاص هذا أعطاه موسى، أيضاً، في الآية ٣٠:١٦ من كتاب التثنية، وهي خاتمة النص الذي يقتبسه بولس: "أوصيتك اليوم أن تحبّ الربّ إلهك، وتسلك في طريقه، وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه، لكي تحيا وتنمو وبياركك الربّ إلهك في الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها". هذه الكلمات لا تُحيي، مجدداً، إلا متي فسرت كما فسرها يسوع ثم بولس. فبالنسبة إلى يسوع وبولس، طاعة مشيئة الله وحفظها يشكّلان الرد الطبيعي على الإيمان. وهما يبلغان ذروتها عبر تطبيق وصية محبة الله والقريب. هذا سلوك ينبغي ألا يتأتى لا من الغيرة على الشريعة ولا من الافتخار بالتقليد الإثني، بل يجب أن ينبع من الإيمان الحيّ والاتكال على الله، اللذين يتقدان في القلب.

بالعودة إلى صورة شجرة الزيتون، إن مصدر دسمها هو دسم التربة^{١٧} التي يؤمنها الله. بالقربية ذاتها، كلمة البشارة عن يسوع التي وصلت إلى قرآء رومية عبر الرسول، هي الدسم الذي يغذيهم ويجري كالتسغ من آذانهم إلى أفواههم وقلوبهم بغية إحيائهم. هذا الغذاء، أي الكلمة، ما كان ليبلغ إلى يسوع والرسول، لو لم يقبله إبراهيم وسائر الأجداد وينقلوه. بكلمات أخرى: تفسير بولس للجذر والتسغ تفسير كتابي تماماً. ففي الكتاب أنّ الربّ هو "إله إبراهيم وإسحق ويعقوب" (خر ٣:٦، ١٤، ١٦؛ ٥:٤). ويعلق يسوع، في مت ٢٢:٣٢، على هذه العبارة، بقوله: "ليس الله إله أموات بل إله أحياء" وهو يقصد بذلك، أنّ الأسلاف أحياء بكلمة الله في الكتب المقدسة، التي لم تُكتب على اللفائف فحسب، بل في قلب كل مؤمن أيضاً. وتعلم هذه الكتب أنّ بنوة الإنسان لإبراهيم لا تعني أنّ يكون من نسله بحسب الدم، بل أن يؤمن، ويطيع الإله الذي آمن به إبراهيم، وأطاعه

¹⁷ تعبر كلمة (γῆ) في اليونانية و (אֶרֶץ) في العبرية عن كلمتي تراب وأرض. وهذا مهمّ لنظرية "أرض الميعاد" التي ليست

سوى وعود كلمة الله.

مدى حياته: . "ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يُحسَبون نسلًا" (رو ٩: ٨) وما الموعد إلا كلمة الله التي تحفظ كل شيء، وكل إنسان، حيًّا.

٥. الأغصان تصبو إلى الحياة (الآيات ١٦-١٩ و ٢١)

الأغصان (Οὐκ κλάδοι) مكوّن الزيتون الثالث، وهي الأكثر وروداً في النص (١١: ٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١). في الواقع، أحد أهداف بولس الرئيسة من لجوئه إلى صورة الزيتون هو إظهار قداسة الأغصان، كما تُظهر الجملة الافتتاحية (١١: ١٦ب): "وإن كان الأصل مقدّساً، فكذلك الأغصان".

يجب النظر إلى الأغصان وكأنها بشر أحياء يحاولون أن يعيشوا ويثمروا بفضل نُسْعِ الشجرة. وليس بولس وحده من يؤكد ذلك بوضوح في رو ١١: ٢١: "لأنّه إن كان الله لم يُشْفِقْ على الأغصان الطبيعيّة فلعله لا يُشْفِقْ عليك أيضاً"، بل إن كتابات الأدب اليونانيّ والعهد القديم تشير، أيضاً، إلى البشر الأحياء، مجازياً، بكلمة "أغصان"^{١٨}.

مقارنة الإنسان بالغصن تتيح لبولس، وللقارئ، الخروج باستنتاجات عدّة. فإحدى أبرز خصائص الأغصان هي التبعيّة (dependency)، بمعنى أن مصيرها يتوقف على ما يفعله بها البستانيّ وما يمدّها به الجذر والجذع من تغذية. كما تتصف الأغصان بقابليتها للانكسار وسرعة زوالها. ولا يندر أن تُشَدَّب، على الأغلب بغية إلقائها بعيداً، ولكن أحياناً من أجل تطعيم شجرة جديدة بواسطتها. ميزة الأغصان الثالثة هي افتخارها في موقعها في رأس الشجرة. وبولس يعرف أنّ ما يحدد جمال الشجرة هو، بالإضافة إلى

¹⁸ أنظر Schneider, J. *TWNT III*, 720

شكلها، غناها بالأغصان. فالأغصان تعكس، عبر أوراقها، وخصوصاً عبر ثمارها، نوعية الحياة الجارية في الشجرة. هذه الصفات جميعها تنطبق، تماماً، على النضال من أجل الحياة، ولا سيما على النضال داخل جماعة المؤمنين. وفي حين أن الجذر والغنى الذي تعطيه الأرض هما معياران ثابتان، فإن رأس الشجرة ربما يتغيّر من وقت إلى آخر، وذلك بحسب ما يقرّره البستانيّ.

هذه الفكرة تقود إلى هدف بولس الرئيسي من استخدام صورة الزيتون، وهو توضيح كيفية صيرورة الأمم جزءاً من شعب الله. كما ذكرنا آنفاً، الزيتون قلب أدبيّ (leitmotiv) مستقى من العهد القديم يمثل إسرائيل الكتابي، أي شعباً تشكل بكلمة الله. وهو، تالياً، قائم بفضل عناية الله الدائمة به، ومعرّض للقطع والحرق، إذا لم ير الله فائدةً منه.

عبر صورتَي التشذيب والتطعيم، يعبر بولس عن أن الشجرة كانت تعوزها العناية، ما أدى إلى تدخّل البستانيّ، في الوقت المناسب، لإنقاذها. التشذيب رمزُ إقصاء الأعضاء الضعيفة أما التطعيم فيشير إلى إدخال أعضاء غريبة. من وجهة نظر ألسنيّة، ينقل النصّ اليونانيّ فكرتي الإقصاء والإدخال عبر الاستعمال المتكرّر للفعلين "كسر" (في اليونانيّة: ἐκκλόω) في رو ١١: ١٧، ١٩، ٢٠، و"قطع" (في اليونانيّة: ἐκκόπτω) في رو ١١: ٢٢، ٢٤ للإشارة إلى التشذيب؛ وللفعل "ركّز في" (ἐγκεντρῖζω) في رو ١١: ١٧، ١٩، ٢٣، ٢٤ للإشارة إلى التطعيم. أما الحضور الكثيف لبادئتي الأفعال (prefixes) "من" (في اليونانيّة: ἐκ؛ في الإنكليزيّة: ex-) و"في" (في اليونانيّة: ἐν؛ في الإنكليزيّة: in-) فيدلّ على أنّ الموضوع الرئيسي للنصّ هو علاقة الفرد بجماعة الله. هذا يعبر عنه أيضاً، بشكلٍ جليّ، في الآية ١٧: ١١ حيث تشير صفة "شريك" (في

اليونانية: (συγκοινωνός) إلى حال الأغصان المطعمة الجديدة، أي المسيحيين الذين لم يعرفوا الشريعة.

١٠٥ بولس يفسر إشعيا

رغم أنّ إدخال الأمم هو الإجراء الذي يتوقعه القديس بولس من أجل تحقيق الوعود المقطوعة للأجداد، يبدو أنّ اليهود، داخل الجماعة المسيحية وخارجها، واجهوا صعوبات جمة في قبول دعوة بولس إلى خلاص اليهود، أولاً، ثم الأمم. هذا ما يحاول مقطع رو ٩-١١ أن يشرحه عبر الاقتباس من الأسفار المقدسة وتفسيرها بدقة. لنأخذ مثل الآيتين رو ١٠: ٢٠-٢١: "ثمّ إشعيا يتجاسر ويقول 'وَجِدْتُ من الذين لم يطلبوني وصرتُ ظاهراً للذين لم يسألوا عني' أما من جهة إسرائيل فيقول 'طول النهار بسطتُ يديّ إلى شعب معاند ومقاوم'". بهذا الاقتباس من سفر إشعيا (٦٥: ١-٢) يختم بولس حجّته الطويلة المتعلقة بفشل إسرائيل في الإصغاء إلى الربّ. من الملاحظ أنّ بولس يستعمل إشعيا^{١٩} في مستهل المقطع (٩: ٣٠-٣١) وفي نهايته (١٠: ٢٠-٢١)، ما يبيّن أهميّة لاهوت إشعيا بالنسبة إليه. لا غرو، فكتاب إشعيا يشتمل على عدد كبير من المقاطع التي تؤكد ضرورة إدخال الأمم مخطّط الله. فلنذكر، على سبيل المثال، النشيد الطقسيّ الذي يتكلّم على خضوع الشعوب كافة للربّ (إش ٢: ١-٥)، وقصيدة "عبد يهوه" الأولى في إش ٤٢: ١-٤، ودعوة الأمم في إش ٤٥: ٢٠-٢٥.

في رو ٩-١١ يستشهد بولس بإشعيا، بلا توقف، طمعاً في إثبات وجهة نظره كتابياً. إحدى أبرز النظريّات التي ينبغي تقديم البرهان على صحتها هي عناد إسرائيل وعصيانه (رو ١١: ٩ // إش ١٠: ٢٩، ١٠: ٥٣). لقد كان من المفترض أن يتقيّد إسرائيل

¹⁹ لرؤية تصميمي لرو ٩-١١ أنظر أعلاه من فضلك.

بكلمة الله، لكنه اتّبع وجهة نظره، ما أفضى إلى صيرورته أمةً رازحة تحت نير الجسد. تأتي إشارة بولس الأولى إلى إشعيا في (رو ٩: ٢٠ ب) حيث يستنجد بصورة الخزّاف والطين^{٢٠} ليؤكد سيادة الله على كلّ أمة من غير استثناء. فالإنسان لا يقدر على مجادلة الله في ما يختص بدوره في الخلاص العالمي، لأنّ الربّ هو الرب، وهو وحده يمتلك رؤيةً إجماليةً للأمور - هذا تصريح لاهوتيّ إشعياييّ - ويعرف كيف يوزّع الأدوار على الجميع (رو ١١: ٣٤-٣٥ // إش ٤٠: ١٣، ٢٨)، تماماً كما يعرف البستانيّ سبب ترك أي غصن من الأغصان في الشجرة، حتى لو اقتضت الخطة تغيير كلّ شيء، فجأة، بسبب العصيان والعناد البشريين، ما قد يستتبع قطع بعض الأغصان. ومن المواضيع اللاهوتية الأخرى التي يطوّرها بولس بالاستناد إلى نبوءات إشعيا الفكرة أنّ بقيةً من إسرائيل، فقط، ستصبح إسرائيل الحقيقيّ (رو ٩: ٢٧، ١١: ٩ // إش ١٠: ٢٢-٢٣؛ ١: ٩؛ ٤: ٣)، ما يعني أنّه ليس من الضروري أن تبقى كل الأغصان في الشجرة. ثمّ ترد صورة الرسول الحقيقيّ بوصفه حجر عثرة، أي سبباً لسقوط المعاندين وخلص كلّ من يصغي إليه (رو ٩: ٣٢-٣٣، ١٠: ١١ // إش ٢٨: ١٦؛ ٨: ١٤). كذلك فإن المصطلحات التي تشير إلى البشارة بالإنجيل (رو ٩: ١٥ // إش ٥٢: ٧) تتركز على إشعيا، وأخيراً، فكرة انتظار مسيّا يخرج من صهيون (رو ١١: ٢٦-٢٧ // إش ٥٩: ٢٠-٢١، ٢٧: ٩).

٥. ٢. طريقة التطعيم غير المألوفة لدى بولس

في المقطع الذي نحن في صدد، ثمة مسألة عسيرة لم تُدرّس بعد، في هذه المساهمة، على نحوٍ ملائم. إذ من المعروف في الزراعة أنّ لا فائدة من تطعيم شجرة محروثة بغصن بريّ. فهذا لن يُساعد الشجرة على الإثمار، بحيث يضحى التطعيم بلا معنى - والثابت ان

²⁰ هذا التشبيه لا يحدث فقط ثلاث مرّات في إش ٢٩: ١٦، ٤٥: ٩، ٦٤: ٧، بل في إر ١٨: ٦، وحك ٧: ١٥ أيضاً.

هدف التطعيم تحسين نوعية الثمار وكميتها. على ذلك، فإنّ ما يُطبَّق على الزيتون، في نص بولس، هو هذا النوع من التطعيم بالذات (رو ١١: ١٦ ب - ٢٤). ومع أنّ بعض الدارسين حاول تفسير طريقة بولس في التطعيم على أنّها ممارسة معروفة قديماً^{٢١}، من غير المحتمل أن يكون بولس قد اعتبر هذا النهج التطعيميّ طبيعيّاً. ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لما كتب عبارته الشهيرة "بخلاف الطبيعة" (في اليونانية: παρὰ φύσιν) في رو ١١: ٢٤. لا بد، إذاً، من تفسير آخر لطريقة بولس غير الطبيعيّة في التطعيم.

مرّة أخرى، يأتي التفسير على أساس ما يُعلّمه الكتاب المقدس. فبحسب الأسفار المقدّسة، لا إنسان يستحقّ نعمة الخلاص. بالمنطق ذاته، لا الزيتون المزروعة قديماً، ولا الغرسة البريّة الجديدة، قادرة، من ذاتها، على إنتاج ثمار جيّدة. فهما متساويتان من حيث عدم نفعهما وحاجتهما إلى تغيير لنثلا تُقطعاً. وكما ذُكر أعلاه، تؤكد الاستعارات النبويّة أنّ أيّ شجرة لا تُثمر ينبغي قطعها. وهذا ما علّمه، أيضاً، يوحنا المعمدان ويسوع. لذا، هناك ضرورة ماسّة أن يتدخّل الله البستانيّ بغية إحداث تغيير جذري. وعند بولس أن الله ينزع الأغصان غير المثمرة، بسبب عدم طاعتها للأصل ولامبالاتها بكلمة الله وبرؤساء الآباء، ويدخل أغصاناً جديدةً آملاً أن تُزهر وتُثمر. من هذا المنظور، يتجرّأ بولس، في رو ١١: ٣٢، على القول إن "الله أغلق على الجميع معاً في العصيان لكي يرحم الجميع". هذا يعني أنّ اليهود واليونان معاً كانوا، ولا يزالون، تحت نير الخطيئة. ولقد أوجد الله لهم سبيلاً حكيماً، لا يُسبر غوره، ليشقّ لهم درب الخلاص. الكلّ مدعوون، ولو كانوا غير مستحقّين. المبادرة التي أخذها البستانيّ، إذاً، غير متوقّعة وكريمة تجاه الجميع. بكلمات أخرى: نحن أمام فعل رحمة. والرحمة مفهوم يتردّد كثيراً في رو ٩-

²¹ انظر:

Fitzmyer, J.A, *Romans*, 614-615 and Baxter, A.G. and J.A. Ziesler. "Paul and Arboriculture: Romans 11:17-24." *Journal for the Study of the New Testament* 24 (1985): 25-32.

١١، وله دلالة خاصةً بالاختيار الحرّ بحسب ما عبّر عنه الربّ بوضوح في رو ٩: ١٥ (خر ٣٣: ١٩): "أرحم من أرحم، وأترأف على من أترأف". من كان ليقول إنّ شجرة قوية ومتأصلة في الأجداد من هذا النوع، مغروسة في أرض غنيّة ودسمة، معرضة للموت بسبب أغصانها العنيدة التي ترفض أن تشرب من النّسغ الممنوح لها مجاناً؟ هل كان يُفترض بالله أن يستسلم بسبب أغصان كهذه؟ كلا بالطبع. في رو ٩: ٢٥، يكرّر الله تعجّبهُ الوارد في هوشع ٢: ٢٥ قائلاً: "سأدعو الذي ليس شعبي شعبي والتي ليست محبوبة محبوبة". في رأي بولس، هذا يعني أنّ الله يعرف كيف يتدبّر هذه المسألة الشائكة، لا لينقذ جزءاً واحداً من شجرته فحسب، بل بعض الأغصان الأخرى من خارج حديقته. فضلاً عن ذلك، الله واثق بأنّ غيرة الأغصان المزروعة ستحدوها، ذات يوم، على أن تُطعم من جديد. بتعابير أكثر أكاديميّة: اختيار شعب الله لا يقوم على جدارة المختارين وقدرتهم، بل، ببساطة كليّة، على مبدأ الرحمة. بحسب قراءة بولس الكتب المقدسة، إذا مَنَحَ الله أحدهم الفرصة أن يُطعم في جماعته، فمن الأفضل لهذا أن يقبل، لأنّ الفرصة قد لا تتكرر ثانيةً.

٥. ٣. التكبر: عدو الإيمان المميت

تجنح الأغصان إلى التبجح. فطالما هي في القمة، تعطي زهوراً وثماراً وأوراقاً جميلة، تحسب أنها جزءاً من الشجرة لا غنى عنه وأن لا شيء آخر يمكنه القضاء عليها. ويعرف بولس أنّ المسيحيين يُجربون بالسلوك على هذا النحو. لذا، هو يحدّثهم، في رو ٩-١١، غير مرّة وبطرق عدّة.

أن يفهم المسيحيون خطر الغرور مسألة، بالنسبة إلى بولس، في غاية الأهمية^{٢٢}. ولذا، هو يشدد على صرامة الله وضرورة مخافته (رو ١١: ٢٠-٢٢). هل يحقّ "لأبناء الموعد" أن يتفاخروا على "أبناء الجسد" (رو ٩: ٨)؟ وهل يحقّ لمن يعيش بحسب الإيمان أن يتشامخ على من يعيش بحسب الشريعة؟ وهل يحقّ للإيمان أن يتباهى على العمل (رو ٩: ٣٠-٣١)؟ طبعاً لا. بولس يجيب هكذا، لكونه يعرف الكتاب. في العهد القديم، تُعتَبَر عبادة الأوثان أعظم خطيئة على الإطلاق. وهي كذلك، لأنها تُحتَسَب تكبّراً وتعالياً وتفاخراً. في سفر أشعيا ٢: ٨، يتّهم النبيّ الشعب قائلاً: "امتألت أرضهم أوثاناً؛ إنهم يسجدون لعمل أيديهم، لما صنعته أصابعهم"^{٢٣}. عبارة "عمل أيديهم" ذات معنى مزدوج. فهي تشير، من جهة، إلى الأوثان المصنوعة بأيدي بشرية. وتدل، من جهة أخرى، على التطبيق الحرفي للشريعة الذي قد يؤول إلى عبادة الذات^{٢٤}. وإلا، فما معنى توبيخات إشعيا المتكررة للشعب على تقويته وطقوسيته المفرطتين: "لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الربّ [...] فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم؛ وإن كثرت الصلاة لا أسمع؛ أيديكم ملآنة دماً [...] اغتسلوا تنقوا؛ اعزلوا شرّ أفعالكم من أمام عيني؛ كفوا عن فعل الشرّ تعلموا فعل الخير؛ اطلبوا الحقّ، أنصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة (إش ١: ١١، ١٥-١٧)^{٢٥}. خلاصة القول أن تطبيق الوصايا الإلهية تطبيقاً أنانياً وعبادة الأوثان هما، من وجهة نظر الكتاب المقدس، الخطيئة ذاتها. وهما يشكلان أسوأ خطيئة يمكن المؤمن أن يرتكبها. فجوهرهما التكبر ومركزية الأنا، أي نكران سيادة الله وتعالیه.

²² لاحظ في رو ١١: ١٧-٢٤، استعمال ضمير المخاطب المفرد، وذلك للتشديد على المسؤولية الشخصية في تعاطي هذه المسألة.

²³ هناك أمثلة أخرى في صم ٣: ٢، مز ١٠، حز ٧: ٢٤، حك ٥: ٧-٨، امك ٢: ٤٩.

²⁴ انظر: ٢مل ١٧: ٢٢، مز ٢٨: ٤، إش ٢: ٨، ١٧: ٨، ٢٢: ٦٥، إر ٢٥: ١٤، ٣٠: ٣٢، مراثي ٣: ٦٤، حج ٢: ١٤.

²⁵ تجد هذا النوع من التوبيخ على مدى الكتابات النبوية انظر: إش ١٣: ٢٩، ١٣: ٥٨، ١-٨، إر ٦: ٢٠، هو ٦: ٦، يو ٢: ١٣، عا

٢١: ٢٨، مي ٦: ٥-٨، زك ٧: ٤-٦. بالنسبة إلى مقاطع مماثلة في سائر كتب العهد القديم، راجع: اصم ١٥: ٢٢، مز

٤٠: ٧-٩، ٥٠: ٥-١٥، ٥١: ١٨-١٩. في إر ٧: ١-٣٤ وحز ٨: ١-١٨ ثمة وصف للهيكل بأنه صار مركز الدنس والظلم وعبادة

الوثن.

بالعودة إلى الزيتون: إذا افتخر غصن بذاته، لكونه طعم في شجرة الله، فهذا يعني أنه يتعالى على كل من الأغصان التي قُطعت والأصل الذي يُغذيه. بذا، يخون هذا الغصن إيمانه، أي السبب الوحيد الذي جعل من زرعه عملية ناجحة. هو يرتكب، إذاً، عبادة أوثان - بالمعنى الكتابي، ويغيظ البستاني، الذي سيقرّر قطعه حتماً. هذا ما حصل لليهودي عند بولس (رو ٢: ١٧-٢٧)، وما قد يحصل، ثانيةً، لأي غصن في الشجرة، سواء كان يهودياً أم أممياً. فإذا كان الله لم يميّز، حين أظهر عطفه، فلماذا يميّز في إظهار صرامته حيال "الذين سقطوا"؟ عند بولس أن الله لا يحابي (رو ٢: ١١) لا في الثواب ولا في العقاب^{٢٦}.

٦. خلاصة

تُقارب هذه المساهمة، عبر تفسيرها صورة الزيتون لدى القديس بولس، المفهوم الدقيق للاختيار من منظور آخر وبطريقة أكثر وظائفية. فبولس، من حيث هو نبيّ ومعلم حكيم معاً، يستعمل قوّة المثل ليشرح جوهر تعليمه. هذا هو الأسلوب الذي كُتب فيه الكتاب المقدّس. وهو، إلى ذلك، طريقة معروفة لدى معلّمي التوراة اليهود يلودون بها، كلما أرادوا إيضاح فكرة صعبة وجعلها قريبة المنال لسامعيهم.

وفق تشبيه بولس هذا، هناك زيتونة محبوبّة واحدة لا يعرف من أعضاؤها سوى الله وحده. بعد يسوع المسيح، الطريقة الوحيدة لصيرورة الإنسان جزءاً من الشجرة هي الاعتراف به ربّاً ومخلصاً. فالمعمودية، تالياً، هي الوسيلة الوحيدة للتطعيم الإنسان في

²⁶ يبيّن حزقيال النبي هذا الأمر عبر لجوئه إلى مثل (م ش ل) واضح هو قصة الأختين أهولة وأهوليبة، اللتين تمثّلان السامرة

وأورشليم، أي مملكة الشمال ومملكة الجنوب. لقد كانت كلتاهما جزءاً من الشجرة. ثم حطّتا، فاقتلعتا، كل واحدة في وقتها.

انظر حز ٢٣.

شجرة الحياة. قَبْلَ يسوع، كان اليهود، دوماً، جزءاً من هذه الشجرة. هذا يعني أن كلَّ مؤمن حقّ بكتاب رؤساء الآباء، قَبْلَ يسوع المسيح، هو عضو أساسي في هذه الشجرة الفريدة، وذلك بالمقدار ذاته الذي يشكّل به، أيضاً، كل يهودي أصغى إلى رسالة المسيح، وقيلَ أن يكون عضواً في جماعة العنصرة الجديدة - كما يروي كتاب الأعمال في فصله الثاني، جزءاً من الشجرة. في ما بعد، كرز الرسل، بوصفهم قادة هذه الجماعة، بالإنجيل بين اليهود، أولاً، ثمّ بين الأمم في أنحاء المسكونة كافة. فكلّ مَنْ قِيلَ رسالتهم، من اليهود، جدّد إمكان انتمائه إلى الشجرة القديمة الجيدة. وكلّ مَنْ رفضها رفض المسيح وقطّع، تالياً، من الشجرة، ما يستدعي الحاجة إلى إعادة تطعيمه في أصله الطبيعي من جديد.. ومن المتوقع أن يحصل هذا، ذات يوم، لمن هم في مثل هذه الحال، وذلك من أجل خلاصهم.